بحيرة الزيتون

أقريتنا ، سألتُ الريحَ إن مرّتْ بأطلالكْ
وأسرابَ الصقور المتخماتِ سألتُ عن حالكْ
وأعلمُ أن راويةَ الطلولِ حديثُه مُرُّ ..
كذلك حدّثت عنك الرياح ، وأردفَ الصقرُ :
« تَظَلُّ جدائلُ الزيتون طولَ العام مرخيّهْ
على دارٍ لنا في وحشةِ الأطلالِ منسيّهْ
يلوحُ ركامُها المهجور أشباحاً ضبابيه
.. وفيما يسقطُ الزيتون في الريح الخريفيه
بلا أعقاب قنديلٍ يَعُلُّ سنا الألوهيه
تغيضُ بحيرةٌ مسحورةُ الأضواءِ قُدسيه
.. وحقلُ التينِ بعد البَيْنِ ، ملعبُ ألفِ جنيّهْ
توزّعُ في محاريبِ الوحي أصداءَ مَرثيه ..

أقريتَنا ، سألتُ النجمَ كيف يعودُكِ الليلُ
أما كوخٌ يُضيءُ ، أما رؤىً تهفو ، أما ظِلُّ !
لِمنْ تلك العظامُ الزُّرْقُ ، ما ضُمّتْ إلى حُفرهْ
يُلاشيها البلى ، تسعين شهراً ، ذرةً ذره ؟

هناك أبي ، بقيةُ فأسِهِ ظَلّتْ على الزندِ
كذلك حدّثَ النجمُ الكئيبُ ، وغابَ في البُعدِ :
« تَظَلُّ البومةُ الحدباء ، والخفّاشُ ، والغربانْ
تحومُ على جدارٍ .. كانَ للأحلامِ ، كانْ
على آثارِ دربٍ كان مغدى النهرِ والبستان
.. ووادي اللوزِ ، لا قطعان تثغو فيه ، لا رعيانْ
دواليه تذوبُ أسىً ، تَحنُّ الى فمٍ عطشان
وفي أعقابِ عُمرِ الصيفِ يكنزُ خيرَه الرمّان
.. وعند صنوبراتِ الدير ، عند بقيةِ الصلبان
تَدُقُّ الريحُ في الأجراسِ كلَّ جنائزِ الانسان

أقريتَنا ، نَفرتْ إليك أسرابَ العصافيرِ
رسائلَ من كنوزِ الشوق ، خضراءَ التعابيرِ
أقولُ لها : إذا وافيتِ عند النهرِ قريتَنا
فحطّي بعضَ ساعاتٍ ، وبُثّي الدارَ لوعتَنا
بأنّا ما نعيشُ اليومَ إلا بانتظارِ غدِ
على وعدٍ مع التاريخِ سحريِّ العبير ، ندي
لِنَحلمْ باللقاءِ العذبِ كلُّ براعمِ الحقلِ
وكلُّ مدارجِ الشنّارِ ، من تلٍ ، الى تلِّ
أقريتَنا ، وحقِّ ثراكِ ما أغفى لنا جفنُ
يظلُّ الشوقُ يُسهِدُنا ، وينزفُ دمعَنا البينُ
وأقمارُ السماءِ ، نظلُّ في مرآتِها نرنو
نُطالعُ وجهكِ المحزون ، كم أودى به الحزن
.. أقريتنا ، بلاكِ ، بلا ثراكِ الخصبِ ، من نحن ؟
تكادُ خيامنا — حتى الخيامِ — يُريبُها الظن !
سوى أنّا ، وإنْ طالَ الزمانُ ، وشاختِ السنُّ
ففي أرحامِ نسوتِنا ، بذورَ الثأرِ ، نجتنُّ

رام الله

يوسف الخطيب